أدب المنفى/ دراسة في رواية "عمت صباحا أيتها الحرب" لمها حسن

The literature of exile / study in the novel "Good morning, war: for Maha Hassan

إبراهيم بوخالفة

المركز الجامعي مرسلي عبد الله بتيبازة

Boukhalfa.brahim@gmail.com

تاريخ الإرسال:.25./.08./..2022	تاريخ القبول:2022/12/20	تاريخ النشر:2022/12/30

الملخص:

أدب المنفى ظاهرة ثقافيّة ذات علاقة حميمة بالإستبداد السياسي وبالاستعمار. كما تشكّل الحروب الأهليّة أحد أهمّ الدّوافع لطلب المنفى. ومن هنا تفكّر الشخصيّات التي تشكّلُ خطرا على النظام الكولونيالي، أو يشكّلُ هو خطرا على حياتها، في المنفى بحثا عن الأمن والأمان.

من أكثر شعوب الشرق طلبا للّجوء السياسي اليوم الشعب السوري، بسبب الحرب الأهليّة التي استوطنت البلاد، ويزيدها الغرب سعارا من خلال دعم الفصائل المتحاربة بدل وقف الحرب .

في هذا المقال نستعرضُ تجربة المنفى لدى عائلة سورية في أوروبا، وآثاره عليها في "السّويد"، من خلال رواية "عمت صباحا أيتها الحرب" لمها حسن. لقد كشفت تجربة المنفى عن الوجه القبيح للغرب.

الكلمات المفتاحية:

المنفى؛ اللاجئ؛ الاستبداد السياسي؛ الكولونياليّة؛ الصّورة.

الملخص باللغة الأجنبية :

The literature of exile / study in the novel "Good morning, war: for Maha Hassan

Exile literature is a cultural phenomenon closely related to political tyranny and colonialism. Civil wars are also one of the main motives for seeking exile. Hence, the personalities who pose a threat to the colonial system, or who are a threat to their lives, think about exile in search of safety and security.

One of the peoples of the East who seek political asylum today is the Syrian people, because of the civil war that has engulfed the country, and the West is making it more frantic by supporting the warring factions instead of stopping the war.

In this article, we review the experience of exile for a Syrian family in Europe, and its effects on them in "Sweden", through Maha Hassan's novel "Good Morning, War". The experience of exile revealed the ugly face of the West.

مقدمة:

لا يوجد ما هو أشدّ وطأة على الروح من أن يُقتلع الإنسان من مكان الألفة، ليجد نفسه في مكان الغربة، محاطا بكلّ ما هو أجنبي وموحشٌ. يكابد ثقل وجوده العسير بعيدا عن أرض النشأة الأولى، وموطن الأسلاف. ومع ذلك، فإنّ الذّات المفكّرة تتوسّلُ عمقها الروحي لتستخلص منه روح العيش ضمن الجماعة الجديدة ولتتخطّى تعاستها التي سبّبها لها وضعها كمنفي خارج المكان. بل إنّ المنفي، وبدافع ألم الغربة يمكنه أن يفجّر بداخله ما يعجز العقل عن الإفراج عنه في مكان الألفة. فحالة الدّعة والطّمأنينة لا يمكنها أن تحرّك الوعي وتستفزّ الذّاكرة الثقافيّة إلى حدودها القصوى .

إنّنا نجد أنّ أعظم الأعمال الإنسانيّة الذي خلّدها عمقها الإنساني وهالتها الجماليّة هي من إنتاج المنفى. ذلك الوضع الإشكالي الذي يحرّك فينا وعينا الباطن ويستنهض تجاربنا الأولى التي غمرها النسيان، فباتت منطقة معتمة، لا ندرك قعرها وطبقاتها السفلى إلاّ من خلال وضعها في بيئة غريبة و/ أو معادية، حيثُ يضعفُ الشّعور بالأمن وتتحفّز فينا غريزة حبّ البقاء، والرغبة المحمومة في العودة إلى الرّحم الأول. وانطلاقا من هذه الوضعيّة المأزومة تكون مدارك الذّات متحفّزة لخلق منطقة وسطى بين واقعها كذات مغتربة ومقتلعة من حضنها الطّبيعي، وماضيها كذات آمنة وفي بيئة صديقة.

تختلف الأسباب الظّاهريّة للمنفى، غير أنّها كلّها تحت مسمّى المنفى الاضطراري. ومهما كان وصفنا للمنفى بكونه اختياريا أو اضطراريّا، فإنه في الجوهر منه مصيرٌ محتوم، تدفع إليه عوامل ذاتيّة أو موضوعيّة. وهكذا يجدُ الفرد نفسه خارج مكان الألفة بحثا عن الأمن، أو عن رفاهيّة مفقودة، أو كرامة مهدورة. إنّنا مطاردون بوهم الحريّة، وبسراب الأمن والأمان، نولد على خوفٍ فطريٍّ من أعداء متخيلين، نفشلُ في غالب الأحيان في تحييدهم .

تدفعنا تهديدات سياسيّة، أوضرورات اقتصاديّة، أومكبوتات نفسيّة للهروب خارج أوطاننا. وكثيرا ما نجدُ معوّقات ومحبطات تشلّ نزوعنا نحو الحركة، فنعجزُ عن الانسجام مع الواقع الجديد، ومع الأسياد

الجدد، ومن ثمّة تبدأ رحلة العذاب مع الغرابة، فننكفئ على أنفسنا، ونلتف حول فرديّتنا، ونحاول أن نبدع عالما بديلا، ينسينا ضيق اللّحظة ويشعرنا بخفّة وجودنا وقدرتنا على الحركة السائلة، والتواصل مع محيطنا والانسجام مع داخلنا، فنحاول أن نقترب من آخرنا بينما ننسى مؤقتا رؤيتنا للعالم، ونتخلّى عن تحيّزاتنا، ونتنازل عن استيهاماتنا. وفي هذه المنطقة الوسطى نحاول أن نكتب العالم من منظورنا الهجين، بعيدين عن إكراهاتنا وأمراضنا المزمنة، وأفراحنا وأحزاننا. وفي هذا السياق نعمل على دراسة قضايا أدب المنفى وجمالياته، متوسّلين مساءلة كبار المفكرين والنقاد الذين كابدوا وضع المنفى ومارسوا كتابته، ومن أهمّ هؤلاء يخطر بالبال إدوارد سعيد الذي اقتُلِع من بيته في فلسطين في ظروف الحرب غير العادلة مع اليهود، الذين سلّطهم النظام الكولونيالي على أصحاب الأرض، حيثُ توجد أرض النبوّات والمقدّسات الإسلاميّة والمسيحيّة. كما أنّنا سنسائل نقّادا وكتابا آخرين عاشوا أو كتبوا عن أدب المنفى في زمن كَثُرَ فيه المهجّرون من الوطن العربي باتّجاه مركزٍ يزدري العرب وينبذهم، ويمعنُ في إذلالهم واستعبادهم بوصفهم عرقا دونيا. وتُعتبرُ منطقة الشرق الأوسط وبلاد الشام من أكثر مناطق العالم طردا لسكّانها، بسبب الوجود اليهودي الذي غدا وباء سرطانيّا يوشك أن يسمم المنطقة العربيّة كلّها بتطرفه.

حقيقة المنفى:

أ-المفهوم

أكثر الأسئلة إلحاحا في مطلع هذه الدّراسة يتعلّق بحقيقة المنفى والمنفي، ما هي الدوافع التي تدفع بالإنسان خارج أماكن الألفة؟ وما هي الأوضاع التي يكابدها المنفي، وأثر الوضع الجديد على وجوده الاجتماعي والنفسي؟ ما هو الفرق بين المنفى واللاجئ والمغترب؟ وهل توجد حياة مشتركة بين هؤلاء الثلاثة؟ "تتضمّنُ حالة النفي فكرة الانفصال والبعد عن وطن حقيقي أو عن أصل ثقافي أو إثني"[1]. فالمنفي هو المطرود من وطنه، الذي لا يجدُ سبيلا للعودة، كالفلسطينيين على سبيل المثال. أمّا اللاجئ فهو نتيجة مكر سياسي، وتتحمّل الكولونياليّة الحديثة والنيو-كولونياليّة المسئوليّة الأخلاقيّة في الزجّ بالآلاف من البشر خارج أوطانهم، وانتهاك إنسانيّتهم بشكل متعمّد وممنهج. إنّ آلاف المهجّرين من فلسطين والعراق وسوريا، ومن كلّ الدّول العربيّة باتّجاه المركز، سيجدون أنفسهم في جحيم المنفى الاضطراري، وسيُلقى بهم في الملاجئ وغيتوهات التّمييز العنصري، ليعيشوا تجربة النّبذ والإقصاء، والعزلة الفكريّة والروحيّة القاتلة، في انتظار وهم العودة إلى بلدانهم، أو أن يحظوا بالتعاطف الدّولي ويتمّ إدماجهم وتمكينهم من حقوق المواطنة والعطف الدّيمقراطي والاندماج الثقافي. إنّ عصرنا "بحربه الحديثة

وامبرياليته ومطامح حكامه الشموليين شبه اللاهوتية، هو حقا عصر اللاجئ والمطرود والهجرة والجماعة"[2]. لا يكاد يخلو بلد غربي اليوم من لاجئين، مطرودين من أوطانهم، أو مطاردين؛ هؤلاء تحتفظ بهم الدّول المضيفة كجماعة سياسيّة مناوئة لحكّامهم، فهم أوراق تفاوضيّة تستخرجها لتحقيق مكاسب استراتيجيّة لصالح الامبرياليّة العالميّة. لا تبالي الحكومة المضيفة بمعاناة اللاجئ أو المنفي، بل إنّها تعمّق من مأساته من خلال توريطه في خيانة حكومته عندما تستخدمه كمخبر، وكأداة لضرب أمن بلده. ومع مرور الوقت تتعقد وضعيّة اللاجئ، وتتضاءل فرصة العودة إلى بيت الألفة، وذكريات الطّفولة الأولى، وهي المرحلة التي تتشكّلُ فيها معالم الهويّة الفرديّة، وتوثّق علاقة الفرد بالجماعة الثقافيّة المحيطة به، والتي يستمدّ منها الأمن الاجتماعي والرضى النّفسي.

يجدُ المنفي أصله "في عمليات الطّرد القديمة جدّا؛ وما أن يُطردَ حتّى يعيش المنفي حياة شاذّة وبائسة، موصوما بوصمة الخارجي. أمّا اللاجئون فهم نتاج دولة القرن العشرين. (....)؛ ويعيشُ المغتربون طواعية في بلد غريب لأسباب شخصيّة أو اجتماعيّة"[3]. إنهم غادروا أوطانهم طواعية وأقاموا في بلدٍ غريب، لسبب ما، ثمّ أحسّوا بغربتهم، وأثقل عيهم التأقلم مع البيئة الجديدة، فلا هم يستطيبون الإقامة، ولا هم يعودون إلى أوطانهم. إنهم يعيشون على الحدود، بين ثقافتين مختلفتين، ومجتمعين على طرفي نقيضٍ.

إنّ معاناة المنفي تعود بالدّرجة الأولى إلى تلك الأشياء التي ألفها في أرضه، وفقدها في منفاه إلى الأبد، كما تكمن في تفاصيل الحياة وجزئيّاتها، وعلاقاته الروحيّة بمعالم المكان والشخصيّات التي انفصل عنها برحيله إلى منفاه الاضطراري أو الاختياري، إنْ كان ثمّة منفى اختياري. وهنالك يعيش هذا المنفي حياة مؤقّتة، في وطنٍ مؤقّتٍ، لا تربطه به إلاّ علاقات سطحيّة، لا تصلُ إلى عمقه الروحي مهما بدت معاملة مضيفيه إنسانيّة، وغير مسيّسة، وبريئة من المصالح والاعتبارات الإيديولوجيّة. لقد دأبت أوروبا على احتقار غير الأوروبيين المقيمين في أرضها. إذْ أنّها ترى فيهم تهديدا لنقائها الثقافي، ولنمط عيشها، ولنظامها الدّنيوي. والواقع أنّ المهجّرين العرب الهاربين من الحروب الأهليّة في بلدهم، أو الفارين من الاستبداد السياسي، قد شكّلوا تجمّعات إثنيّة ذات مرجعيّة دينيّة، حتّى يتمكّنوا من تحمل تبعات المنفى التي كثيرا ما تترك فيهم تشوهات وندوبا عميقة في أنفسهم يصعبُ تجاوزها. وبسبب ذلك، فإنّهم كثيرا ما

يكونون عرضة لمضايقات محرجة وتهديدٍ بالترحيل القسري. وفي هذه الحالات لا تبالي الحكومات الغربيّة بانتهاك القوانين التي تعهّدت باحترامها حفاظا على سلامة ضحايا الحروب التي أشعلتها الحكومات الغربيّة في دول الهامش، تبعا للعبة مصالح الامبرياليّة العالميّة.

إنّ منطقة عدم الانتماء محفوفة بالمخاطر، لكونها تجعل من الاختلاف الثقافي حدّا فاصلا بين–نا، وبين–هم. إضافة إلى كونها تُشعرُ المنفيين بالنّبذ، وتحيلهم إلى المناطق الأطرافيّة، وتقصيهم من التجمّعات المحليّة الكبرى. فالأجنبي موسوم بالدّونيّة، ووجوده يسمم أصحاب الأرض. وهكذا يُحالُ المنفي واللاجئ إلى الهامش، ويُحتفظ به في الأركان المعتمة لوقت الحاجة. وبسبب ذلك الوضع الإشكالي يُعدُّ المنفى دافعا قويا للقوميّة والولاء للوطن، ولثقافة الأسلاف. يعلم الفلسطينيون اليوم "أنّ إحساسهم بالهويّة الوطنيّة قد ترعرع في وسط المنفى، حيثُ كل من لا تربطهم به صلة الدم هو عدو، وحيثُ كلّ متعاطف هو عميل لهذه القوة المناوئة أو تلك. وحيثُ أدنى انحراف عن خطّ الجماعة المقبول هو فعلٌ من أبشع أفعال الخيانة والخروج"[4]. إنّ تفاقم العاطفة القوميّة لدى المنفي مبعثه، التهديد اليومي الذي يواجهه في انتمائه الحضاري وعاداته ونمط عيشه، وسط محيطٍ نابذٍ، وعدائي، ينظر إليه باعتباره سليل مجتمعات بدائيّة متوحّشة، لا تزال تعيش في طور الطّبيعة الفجّة. إضافة إلى أنّه موضوع ازدراءٍ في ذاته باعتباره إنسانا ذا تركيبة نفسيّة منحطّة في نظر مضيفيه.

الواقع أنّ الفلسطينيين الذين يعانون الشتات، موزعين على كلّ دول العالم، بما فيها الدّول الغربيّة، يعلمون علم اليقين أنّ الغرب هو الذي حوّلهم إلى منفيين، ومنبوذين؛ ففي أوروبا، تُعتبر مأساة فلسطين أسوا موضوع يمكن أن يذيعه الإعلام الرّسمي، أو يتحدّثُ عنه في الموائد المستديرة، كما أنّ السوريين، يعلمون تمام العلم أن الغرب هو صانعُ مأساتهم من خلال تدخّله في شأنهم الدّاخلي لصالح الفوضى الدّامة. إنّ الحكومات الغربيّة تُشعلُ الحروب الأهليّة، من أجل تهجير سكّانها، أو تغيير بنيتها الدّيمغرافيّة بما يتناسبُ مع مصالحها الاستراتيجيّة. وبسبب هذه المفارقة العجيبة يتعذّرُ على اللاجئ أن يتجاوز محنة المنفى مهما كان وضعه المادّي مريحا.

إنّ مفكّرا إنسانويّا بحجم إدوارد سعيد، ورغم إقامته المبكّرة في أمريكا، وضمن مجتمعٍ عالمٍ ومتبرجزٍ، ودنيويّ، ورغم تحقيقه وضعا طبقيّا متميّزا ضمن النخبة الأكاديميّة، إلاّ أنّه ظلّ وفيا لقضيّة بلده، بل إنّه

كرّس قلمه وصوته الأكاديمي لخدمة قوميّته، والتّنديد بالسياسات اليهوديّة المتطرفة والمرفودة من قبل أمريكا وأوروبا. وبسبب ذلك يحلو للّوبي الصّهيوني أن يلقّبه ببروفيسور الإرهاب. لم ينفصل إدوارد سعيد عن وضعه كمنفي، رغم أنّه يعيش وضعا مألوفا ومريحا ماديا واجتماعيّا. لقد ظلّ طيلة حياته يشعرُ بقهر الإبعاد، والشوق إلى الطّفولة الأولى. وقد أوصى بأن يُدفن في القدس الغربيّة، مسقط رأسه، غير أنّ سلطة الاحتلال حرمته من ذلك.

يعيشُ المبعد مع فكرة استحالة العودة، وألم الفقد ووحشة الغربة ووجع الانفصال، غير أنّه يستبقي لنفسه نافذة أمل ضئيل، أن يتغيّر النظام السياسي الذي أدانه، أو أن تسقط التّهمة التي أبعدته، أو أن تتغيّر الظّروف الدّوليّة التي تؤهّله للعودة إلى أهله وأرضه. لقد حمل الفلسطينيّون المهجّرون من الأراضي المحتلّة مفاتيح بيوتهم معهم، أملا في العودة. ولم يحصل شيئ إلى الآن. غير أنّ بعض المبعدين والمنفيين من قبل نظام الرئيس التونسي الراحل زين العابدين، تمكّنوا من العودة بعد سقوط النظام الشّمولي بثورة سلميّة. ومهما يكن، فإنّ عودة المنفيين عادة ما تطول، لعلاقتها بمعامل السياسة، ونحن نعلمُ أنّ الأنظمة العربيّة الرسميّة تُعمّرُ طويلا، وأنّ ما سُمّي بالربيع العربي ما لبثَ أن ارتدَّ على عقبه. ولذلك فإنّ المنفي مهيئ لمعاناة طويلة، ومن أجل أن يخفّف من عبء الحياة على الحدود، نراه ينغمسُ في واقعه الجديد، والتمرّس على ثقافة البلد المضيف، ليتحوّل إلى الكوسموبوليتيّة من أجل تجاوز حالة الانسداد التي وجد نفسه فيها.

إنّ التّشبّع بثقافة الأغيار وبتجاربهم الحضاريّة ومآسيهم الذّاتيّة، تخفّف من أزمات الذّات، وتفتحُ الوعي على آفاق إنسانيّة تجعل المنفي يتقبّلُ وضعه، بمجرّد أن يحوّل الهموم الذّاتيّة إلى قضايا إنسانيّة عامّة. ومن ثمّة يمكنه أن يتحوّلُ من موقف المتقبّل للوضع إلى موقف المقاوم. إنّ قضيّة الإبعاد مرتبطة بالاستبداد السياسي والعمالة للأجنبي، وانطلاقا من هذا الإدراك العام لقضايا الذّات يتحوّلُ الخاص إلى العام، والذّاتي إلى الموضوعي. وأن يعلم المبعدون أنّ قضيّتهم واحدة، ليست حقيقة خاملة، بل هي سندهم الذي يُمدّهم بالقدرة على مواجهة مأساتهم، والإشارة إلى خصومهم بالبنان، والدّعوة إلى إدانتهم على المستوى الدّولي، الأمر الذي يُضعِفُ موقف الأنظمة التي تقصي خصومها وتلقي بهم خارج الوطن، وتسلبهم حقوق الجنسيّة. وإنّ الكثير من المبعدين استعادوا الوطن بفضل المقاومة الشّرسة التي أبدوها.

وأن ينزوي المبعد إلى الركن المظلم، ويتّخذ صفة المنبوذ والمدان، هو انتحارٌ بطيء، وهزيمة نفسيّة لقضيّة إنسانيّة عامّة.

يشعر المبعدون الذين يعزلون أنفسهم عن الجماعة المضيفة أنّ اختلافهم الثقافي هو يتمٌ، وهو في جوهره رفضٌ للانتماء في انتظارٌ لاسترجاع الوضع الطّبيعي. وبما أنّ أوضاعهم طويلة الأمد، فإنّهم ينمّطون أنفسهم على القبول السلبي لمأساتهم. فلا يلتفتُ إليهم أحد، ولا يشعر أحد بغيابهم أو بحضورهم. إنهم يلوكون حسراتهم في عزلة قاتلة.

ب–من ضيق المنفى إلى الكوسموبوليتانيّة:

يعمل المنفيون واللاجئون على صنع عوالم بديلة، تنوب عن غياب أفق العودة. إنّهم لا ينفكّون يعملون على تعريض ما خسروه، "ولذا ليس من المدهش أن نجد بين المنفيين كثيرا من الروائيين ولاعبي الشّطرنج، والنّاشطين السياسيين والمفكّرين"[5]، وهذه الأوضاع لا تتطلّب إلاّ التوظيف الأقصى للمهارات التي تنسجمُ مع شخصيّة المبعد. وبما أنّ كلّ شيء يمرّ عبر الوعي، أو المخيال الرمزي للذّات المفكّرة، فإنّ على المنفي أن يتخلّى عن التّفكير ضمن إطار قومي، إذا أراد أن يحول الهموم الذّاتيّة إلى قضايا إنسانيّة. يتعيّن على المنفي أن يغيّر نظرته إلى الأشياء العابرة، فلا ينظر لها في ظاهرها، حتّى يتمكن من تجاوزها. إنّ من "يجد وطنه عزيزا وأثيرا لا يزال غرا طريا؛ أمّا الذي يجد موطنه في كلّ أرض فقد بلغ القوّة؛ غير أنّ المرء لا يبلغ الكمال قبل أن يعتبرَ العالم أجمع أرضا غريبة. فالنفس الغضّة تركّزُ حبّها على بقعة واحدة من العالم، والرّجلُ القويّ يشملُ بحبّه كلّ الأماكن، أمّا الرجل الكاملُ فهو الذي يطفئ جذوة الحبّ لديه"[6] وليتحوّل إلى مواطن عالمي، يفكّر ما بعد القوميّات والإثنيات، وينبذ التحيّزات.

يخطر بالبال في هذا السياق عالم الأدب الشهير إيريك أورباخ الذي نُفي إلى تركيا طيلة سنوات الحرب. لقد أقنع نفسه أن يتحرر من حدوده القوميّة، وأن يعتنق الرؤية الكوسموبوليتانية للكون، فأبدع كتابا ما كان له أن يكتبه لو كان بأرضه، وفي حالة السلم. لقد كتب كتاب "محاكاة"، وهو أعظم ما كُتِبَ في النقد الأدبي في القرن العشرين. إنّ "رؤية العالم أجمع أرضا غريبة تمكّن من تكوين رؤية اصيلة"[7] للوجود، وغير متحيّزة لأيّ من ثقافات العالم. ذلك أنّ المنفي قد تشبّع بأهمّ الثقافات الإنسانيّة من خلال

القراءات الكثيرة، وتجارب السفر والارتحال، بينما لا يعرفُ عامّة الناس سوى ثقافاتهم القوميّة ولغاتهم الوطنيّة. وإنّ العقل الإنساني لا تكتمل صورته إلاّ من خلال تعددّ الأوجه وزوايا الرؤية.

ونفس الشيء يقال عن المفكر والناقد الدّنيوي إدوارد سعيد، أحد أهمّ مؤسسي النقد ما بعد الكولونيالي؛ إنّ وضعه كمنفي ووقوع بلده تحت أبشع احتلال في القرن العشرين، بتواطؤ من الدّول العظمى، إنّ ذلك قد حوّله إلى مفكّر إنساني، قد تشبّع بأهم وأعظم فلسفات الغرب، من أوروبا وأمريكا. ويعود الفضل في ذلك تجاوزه لحدوده القوميّة، فهو يعرفُ اللغة الفرنسيّة والعربيّة ويتقنُ الانجليزيّة. وقد منحه التعدد اللّغوي فرصة الالتقاء والتشبّع بأهمّ ثقافات العالم خلال التاريخ البشري كلّه. إنّ كتابي "الاستشراق" و"الثقافة والامبرياليّة" مثقلان بتجارب عالميّة خلال العصر الحديث كلّه. ولا تتاح هذه الرؤية الكونيّة لكاتب يعيش الدّعة الفكريّة، والسّكينة الروحيّة والانعتاق من كلّ معوّقات الوجود. لقد كان إدوارد سعيد حاملا لهموم العالم كلّه؛ فهو يسعى لمحاربة التحيّزات والمركزيّات كلّها، وإدانة التّصنيفات الجوهرانيّة للبشر، والمؤسّسة على العرق والدّين والطّبقة. لقد كان كما كتب ذات مرة، مقيما بين كتبه، إذْ "تصبحُ الكتابة لمن لم يعد له وطنٌ مكانا للعيش"[8]. إنّ المثقف الذي تتلبّسه أعراض المنفى لا يستجيب لمنطق الأعراف. فهو مغامر فكري متوتّر، مقبلٌ على التغيير يرفض الركود والجمود، ويعرضُ عن المتعارف عليه وما هو مهيمن على الساحة الفكريّة والسياسيّة. كانت حياة إدوارد سعيد الفكريّة معارضة للمعتمد وللسائد، وثورة ضدّ حقائق الامبرياليّة العالميّة التي حوّلتْ شعوبا بأكملها إلى منفيين ومنبوذين، بلا وطن، فقط من أجل إفراغ بلدانهم وإعادة تشكيل الجغرافيا البشريّة بما يخدم مصالحها الكولونياليّة.

يعدُّ عصرنا، لما بعد الحداثة، العصر الذّهبي للمنفيين السياسيين، الذين حوّلوا منفاهم إلى أدبٍ إنسانيٍّ وفكرٍ ثوري، يرفض القوالب الجاهزة والحقائق الدّوغمائيّة والأنظمة المتصلّبة. وقد نتجت هذه الظاهرة عن الاستبداد السياسي الذي ميّز الشرق الأوسط والعالم العربي طيلة القرن العشرين، وأثر الكولونياليّة وما بعدها والحرب الباردة وما نتج عنها من هجرات اضطراريّة من المعسكر الشيوعي إلى العالم الليبيرالي. دون أن نغفل ما مثّلته النازيّة على العنصر اليهودي من رهاب، وإرهاب، وما مثله اليهود بدورهم من تدمير لشعبٍ مستضعفٍ، لا يزال إلى يومنا هذا يعاني الشتات.

لقد حوّل كبار المفكرين في العالم منفاهم إلى عامل إبداع مكّنهم من تحقيق العالميّة، وتخطّي شرطهم السياسي المبتذل. وها هو بارتولت بريخت (Bertolt Brecht) وكثير من رجال الفكر والثقافة الغربيين (وأشهرهم توماس مان) يفضلون حياة المنفى على "حياة القنوط وانكسار الحلم داخل الوطن" وقد كتب في هذا السياق قصيدة مطلعها:

لا تدق مسمارا في جدار

ارم بمعطفك فوق الكرسي

لماذا تتموّن لأربعة أيام،

وأنت عائد غدا.....؟"[9].

عاش المسرحي الألماني حياة المنفي في أمريكا بسبب تهديد النازيّة، ولم يعد إلى وطنه إلاّ بعد الحرب العالميّة الثانية وهزيمة النازيّة. والواقع أن القوميّة المتطرفة التي أسسها هتلر هجّرتْ الكثير من العقول الألمانيّة إلى أمريكا تحديدا، ومن أهمّ هؤلاء بعض نجوم مدرسة فراكفورت الألمانيّة من أصحاب الأصول اليهوديّة.

تشيرُ الأبيات التي أنشأها بريخت إلى حالة التوتّر ورفض الثبات في المكان الواحد. "يتعلق الأمر باندفاعة هجراويّة تحثّ أصحابها على تغيير المكان والعوائد والشّركاء أملا في معايشة الأوجه المتعدّدة للشخصيّة البشريّة على الأرض"[10]. إنّ الشخصيات ذات الهمم الكبيرة لا تحتملُ أن توضع ضمن نمط ثقافي صلب، لا يقبل التّشكيك، أو المساءلة، وهكذا يفضّلُ هؤلاء أن يهيموا على وجوههم بحثا عن أفق إنساني يحتويهم، على غرار ما فعله الشاعر العراقي المتمرّد مظفّر النواب، صاحب ملحمة "وتريات ليليّة". لقد عاش ذلك الشاعر يجوب حياة المنفى، بين بيروت ودمشق وعواصم أوروبيّة، ولم يستقرّ بالإمارات إلا في سنواته الأخيرة، حيثُ قضي في ماي من هذا العام في الشارقة.

من الشخصيّات العالميّة التي تفجّرتْ عبقريتها بفضل المنفى "ميخائيل باختين"، الناقد السوفياتي الألمعي الذي نُفي إلى سيبيريا لمدّة ستّ سنوات عام 1929 بسبب ارتباطه بالمسيحية الأرثوذكسية. وبعد

عودته من المنفى أصيب بمرضٍ بُترتْ على إثره ساقه، ليكمل حياته معاقا. لقد كانت حياته مأساة حقيقيّة، إذْ كان يعيش شبه عزلة اجتماعيّة، غير أنّ هذا الوضع لم يزده إلاّ إصرارا على تطوير نظريته الروائيّة التي يعارض بها المحافظين الماركسيين، الذين كانوا على رأس النظام الستاليني. فباختين يؤمن بالحواريّة، وهو مبدأ انفتاحي، يؤمن بمبدأ الاختلاف الثقافي، والصّراع على صعيد الأفكار والإيديولوجيّات. وهذا إقرارٌ بآخريّة الآخرين، وقبولٌ بالتعايش معهم وإنْ على الحدود. ومن أجل ذلك، فقد كان باختين ينشر مقالاته بأسماء مستعارة، وأحيانا يُحجم عن نشرها خوفا من المتابعة. ولم يشتهر هذا الناقد إلاّ بعد وفاته، وبعد المرحلة الستالينيّة، عندما نُشِرتْ أهمّ مؤلّفاته.

ولقد اقترن اسم باختين بمواطنه فيودور دوستويفسكي، الذي لا يقلّ عنه شهرة ولا يقلّ عنه بؤسا. فقد عانى هو الآخر من مأساة النفي بسبب انتمائه لتنظيم ثقافي سريّ يناقش الكتب المحضورة (رابطة بيتراشيفسكي). وقد أُلقيَ القبض عليه عام 1849 وحُكِم عليه بالإعدام، ولكن خُفف الحُكم في اللحظات الأخيرة من تنفيذه، فقضى أربع سنوات في الأعمال الشاقّة تلتها ستّ سنوات من الخدمة العسكرية القسرية في المنفى. ورغم هذه المحبطات إلاّ أنّه حقق مجدا أدبيا وفكرياّ لا ينافسه فيه أيّ كاتب على مستوى العالم في القرن التاسع عشر. وقد كان مُلهما لباختين في تحديد رؤيته النقدية والفكريّة. لقد تخطّى الروائي دوستويفسكي حدوده القوميّة من خلال الترجمة ولم يزده المنفى والفقر وأعوام التّيه التي قضاها في أوروبا، لم يزده كلّ ذلك إلاّ ألمعيّة.

2-اضطهاد المنفى:

أ-رمزيّة البيت:

لا يمكن الحديث عن بشر أو جماعة إنسانيّة دون الحديث عن البيت. إنّه لازمة من لوازم الآدميين. ولا يستقيم عيش دون جدران وأسقف. "البيت أن تدخل إلى مكان مغلق وتقفل عليك بابه، فتشعر بطمأنينة السلام. هو السلام، الوقاية من الآخر؛ وعلى نقيضه اللابيت، هو التواجد في احتمالية الخطر: هجومٌ ما من طرفٍ ما، إنسان، حيوان، طبيعة"[11]. هكذا تحدّثت الروائيّة عن البيت، في إشارة إلى فضاعة الحرمان منه. أن تُحرَمَ من بيت، يعني أن تبيت في العراء مكشوفا لكل تهديد من الآخرين، في مجتمعٍ تمكّنت منه

الكراهيّة. يمارسُ السوريّون شهوة القتل في بعضهم، وداخل بيوتهم، وعائلاتهم. لقد كان الكل يقاتلُ الكلّ دون تمييز بين قوّات صديقة وأخرى عدوّة. مجتمعٌ مزّقته الحرب الأهليّة بتفويضٍ من الامبرياليّة العالميّة التي تنادي بالسلام في رابعة النهار وتوزع السلاح في الليل على كلّ الأطراف لمزيدٍ من الضّحايا. لقد تحوّل الشعبُ كلّه إلى منفيين، وصار القادر على الفرار يختار وجهته دون تمييز، فأن تكون خارج الوطن، يعني أنّك أفلتَّ من الهلاك.

ألقت الحرب السوريّة بلؤي خارج الوطن، ليفقد دفء البيت، وأمنه، وسكينته، فراح يبحث عنه وطن مؤقّتٍ في أوروبا، واختار الدولة التي يتحدّثُ الناس عنها أنّها أكثر الدول احتفاء بحقوق الإنسان والحريات، اختار السويد. غير أنّ الشعوب الأوروبيّة تتغيّر معاييرها الأخلاقيّة إذا تعلّق الأمر بغير الأوروبيين. لقد عزّزت الحرب الأهليّة في سوريا من الكليشيهات الاستشراقيّة التي تصنّفُ العرب باعتبارهم برابرة وهمجيين وإرهابيين. وهكذا يواجَه المتحاربون السوريون بالطّرد والنّفي من المجتمع السويدي، وعليهم أن يبحثوا عن مأوي في بلدٍ آخر. إنّ أوروبا لا ترحّبُ بالبرابرة. "أن تكون مطرودا من البيوت يعني أن تعيش هلع الخروج، هلع الدّفاع عن نفسك خارج البيوت، كلّ البيوت التي حطّ فيها حسام وغيره الكثيرون من السوريين فتحتْ أبوابها طالبة منه المغادرة إلى غير رجعة"[12]. أضحى المهجّرون السّوريون يعيشون رهاب العراء، والفقد والإبعاد، والإعراض والصدّ. كما أضحى البيت، تلك الجدران الأربعة التي تحمي من السطو وتحضن ساكنها، وتحميه، هاجسا مؤرقا، يتردّد على سرد المنبتّ عن جذوره. "في حالة السوريين، تأخذ مسألة الهوية منحى آخر ينبني على استعارة البيت المفقود؛ فالبيت له حيز كبير في الرواية من بداية السرد إلى نهايته، [لوكان عندي بيت]، [لا بيت في حلب]، [لا بيت في السويد]، [هاجس البيت]"[13]. أضحت هذه المفردة لازمة إيقاعيّة تسكن خطاب المنفيين السّوريين، إنّهم فقدوا البيت/ الوطن، ما يعني أنّهم فقدوا أسباب الحياة، وفقدوا نقاط الارتكاز، ودخلوا في دائرة التيه، إنّهم أضحوا كالحيوان الذي يسكن العراء، ويعيشُ في الطّبيعة المملوءة وحوشا وغيلانا.

والحقيقة أنّ الشيء المفقود كثيرا ما يكتسبُ أهميّة بؤريّة في وجودنا، وبمجرّد أن يتحقّق يفقد بعده الإنساني، أو أنّه يفقد تركيزنا واحتفاءنا به، وتأويلنا له على أنّه جوهريّ ومركزيّ. إنّ كلّ مفقود مطلوبٌ، ومرغوبٌ فيه. وبقدر ما هو جوهريّ ومحوريّ في حياتنا الخاصّة فإنّ غيابه هو غيابٌ للمعنى وتشتيتٌ

للهويّة، فالمنفيّ موزّعٌ على أماكن متعدّدة، وممزّقٌ بين رغبات شتّى، تتقاطعُ فيه المصالح العالميّة وتتجاذبه التحيزات السياسيّة وتقتله الوصايات الإيديولوجيّة. السّوريّون محاطون بجيوش ذات انتماءات مختلفة، والحرب بينها على أشدّها. يوجد جيش النظام الذي فتح الوطن على الجيش الروسي، وجيش المعارضة الوطنيّة، وميليشيات إرهابيّة زرعتها المخابرات الأجنبيّة لإبادة مسلمي السنّة. لقد كان الكلّ يحارب الكلّ ويجد الفتوى التي تبيح له قتل آخره. والبسطاء من الناس يستغيثون العالم لوقف المذابح، والعالم بين مستهزئ بهم وبين متشفٍّ، ومتباكٍ. والمساعدات إلى المحاصرين لا تصل إلى وجهتها.

كانت حلب قبل الحرب جوهرة الشام، ومحجّة الفنانين العرب وغير العرب، ومركز الآداب العربيّة. وهي من خلال سرديّة مها حسن قد تحوّلت إلى أنقاض ودمار شامل. لقد فقد الجميع بيوتهم، وفقدوا أرواحهم، وتشتّت الناجون عبر العالم، يتوسّلون الأمن والبيت المفقود، وهم يُطْردون من بيت إلى آخر، فيشتدّ الشوق إلى بيت الألفة، وينقاد الناس إلى بلدهم الجريح، أملا في هدنة تنسيهم ألم الفقد.

كلجي امرأة تركيّة تقيم وحدها في مرسين وهي جارة للراوية، تتحدث عن دلالة البيت في حياتها، وقد كانت في هولندا ضيفة عند ابنة أختها، ثم حنّت إلى بيتها في سوريا: "اشتقت لشرفة بيتي، هنا أشرب قهوتي وأفتح جهاز التلفزيون، وأستمع إلى الأغاني الحزينة، أغني وأبكي، أحبّ هذا، أحب هذا الحزن، هذه الوحدة، هذه العزلة، لا أحب الضجيج والزحام، ولا أحتمل العيش مع الآخرين، لم أتزوج كي لا يقاسمني أحد فراشي وحمامي وأريكتي"[14]. الحنين إلى البيت يشتدّ مع تعاظم الخوف من فقده، ولا أعرف مخاطر تهدد بضياع البيوت كالحرب، فهي الأداة العمياء للقتل والتّدمير. وعندما يسقط البيت تسقط معه ذكرياته، والتجارب التي خيضتْ فيه، والأفراح التي أقيمت بداخله والخيبات التي تجرعناها ونحن نقيمه حجارة حجارة، كلما أنهينا جدارا، أقمنا حياة وعمرناها أملا. يشتدّ الشوق إلى الشرفة التي نحتسي فيها قهوتنا، والمطبخ الذي نعدّ فيه عيشنا، والحديقة التي نتنفّس عطرها، والأريكة التي نستلقي فيها ونستسلم لأحلامنا واستيهاماتنا. البيت مشْبَعٌ بأنفاسنا ومسكونٌ بضحكاتنا، وأوجاعنا، وآمالنا وآلامنا. إنه عمقنا الروحي، وبعدنا الإنساني.

تخاطبُ الأمّ ابنتها **مها** المقيمة في فرنسا، لتُحدّثها عن مركزيّة البيت في حياتنا ، وأنّه من دونه يفقد الإنسان نقطة ارتكازه، وتُشلّ قدرته على التّفكير الإيجابي. "البيت يا مها، هذه الكلمة التي تقولين أنّها أهم

مفردة في حياتك، البيت الذي تفتقدينه دائما تقولين أنك غادرت سوريا بحثا عن بيت، عن غرفة، كتلك الكاتبة الأجنبية التي ألّفت كتابا عن الغرفة، تقولين أنك قد تشردت في البلاد بحثا عن الإحساس بأن لديك بيتا"[15]. إنّ مها كاتبة هذه الرواية قد هاجرت إلى فرنسا مع بداية الأزمة السوريّة، وقبل أن تتطوّر إلى حرب شوارع بين النظام والثّورة، وقبل أن تتناسل الميليشيات المسلّحة وتتكاثر من كلّ حدب وصوبٍ. وقد تمكنت من الحصول على مسكنٍ أشعرها أنّ لها بيتا؛ هذه الوضعيّة المؤقتة جعلتها تشعر بعمق الفقد الذي يُمْنى به اللاجئ السوري، وحجم الخسارة التي يمثّلها هدم البيت. بل إنّ الهروب خارج الوطن هو من أجل البحث عن بيت مؤقّت، وتعويض ما تمّتْ خسارته في الوطن. غير أنّ سرديّة مها حسن هذه (عمت صباحا أيتها الحرب)، تنفي أنّ ما خسرناه في الوطن بسبب الحرب أو الإبعاد يمكن تعويضه. الحياة دون بيت هي إقامة في العراء، وفي مواجهة التّهديد بخسارة الحياة بشكلٍ أبدي، ولأسباب عبثيّة، لا يتحمّلُ اللاجئ أيّ مسئوليّة عنها.

يتّخذُ البيت في هذه السّرديّة، لدى اللاجئ والمنفي بُعدا وجوديّا، فهو لازمة من لوازم الإنسان، ذلك الإنسان الذّي يتميّز عن الكائنات الأخرى بالبيت. إنّه كائن ثقافي، مدني، لا يعيشُ إلاّ ضمن جماعة، وفي بيت آمنٍ. وحده الحيوان يتّخذ من الطّبيعة عرينا ومسكنا.

ب-صدمة الآخر:

اللّقاء بين الشرق والغرب لا يمرّ دون ألم، ومعاناة. بين دفء الشرق وصقيع الغرب مسافة ما بين الحبّ والكراهيّة، ما بين الألفة والغرابة، ما بين الحياة والموت. فالشرق شرقٌ والغرب غربٌ ولن يلتقيا أبدا على حدّ قول كيبلينغ. ما أن حطّت الراوية قدميها في أرض السويد حتّى تفجّعتْ من بردها. "صدمني البرد، لم أستطع التّفكير في أيّ شيء آخر، فقط أريد مكانا لأخرج من هذا البرد. البرد فظيعٌ هنا، لم أعرف في حياتي بردا كهذا؛ لا أريد شيئا في حياتي في هذه اللّحظة، فقط أريد أن أهرب من هذا البيت"[16]. إنّ الانتقال إلى مكان الغربة، هو انتقال من ثقافة مألوفة إلى أخرى أجنبيّة، ومن ظروف عيش رحيمة إلى أخرى بالغة القسوة. وستعكس برودة الطقس في أوروبا برودة عاطفيّة في العلاقات الإنسانيّة. لقد أصيب تفكير الرّاوية بالشلل بفعل درجة الحرارة المتدنيّة، والصّادمة مقارنة بشمس الشرق الحارقة. لم يعد لها من هاجس إلاّ الهروب باتّجاه نقطة الانطلاق. الاحتكاك الأول بالآخر لم يكن مبشّرا بالضيافة.

الشخصيّة المحويّة في رواية مها حسن، هي شخصيّة حسام، فحوله تُنسجُ الحبكة، ويُمثَّلُ المنفى بكلّ تعاسته. أوّلُ ما يُرى حسام، لمّا كان فارا من سوريا، إلى تركيا، ومنها إلى اليونان، مع مهرّبين غير شرعيين. ما أن دخل أثينا، حتّى بدا العالم مشطورا إلى نصفين، أحدها للحضارة والآخر للبربريّة. "تنقسم أثينا إلى قسمين، القسم العربي وهو مزدحمٌ، وفيه منطقة أمونيا، شارع أخرنون وغيرها؛ وهناك قسمٌ راق وفاخرٌ مثل كليفادا كيفي سيا بلاكا.القسم الفوضوي مؤلف من عرب وأفغان وباكستانيين، وهو يعجّ بالمخدّرات، نرى الناس على الأرصفة تتعاطى المخدّرات، نرى الحقن بالإبر، يباع الحشيش علنا؛ وهناك يعيشُ المزورون: تزوير الوثائق وجوازات السفر"[17]. يقترنُ وجود الأفارقة والآسيويين في الغرب ببؤر الفساد والمخدّرات والتّهريب والتّزوير، وكلّ أشكال الجريمة. غير أنّ سؤالا ملحّا ينبثق من خلال هذا التّقسيم الاعتباطي للأحياء وللبشر في أوروبا، لماذا تتعمّدُ وكالات الهجرة في أوروبا إلى تكديس اللاجئين في أحياء معزولة ومعلّمة؟ ولماذا لا يبادرون بترحيلهم ما داموا يسمّمون مدنهم ويدنّسون ثقافتهم؟ قد يكون الرّجلُ الأبيض في أوروبا، سليل الحضارة المتفوّقة والعرق النبيل أن يحشر التابعين على الأطراف، ويحيطهم بحدود معلومة لا يتجاوزونها من أجل أن يشعر بقوّته، وبأنّه مهما ساء وضعه فإنّه يوجد من هو أحطّ منه وضعا، وأقلّ منه ذكاء، وأدنى درجة. إنه يحشره في الركن المعتم لوقت الحاجة وللسخرة، فيستدعيه متى شاء لخدمة اقتصاده مقابل إبقائه على قيد الحياة.

إنّها الطّريقة المثلى أيضا لإقناع التابع بدونيّته، وأنّه لا يمكن أن يُسوّى بالأوروبي ولا بالأمريكي، وعليه أن يقبل بالتبعيّة، وبوضعيّة المتعلّم والخادم الأمين. وعليه ألاّ يفكّر في الاختلاط بالأوروبيين، ولا بمحاولة اللحاق بمنزلتهم المتفوّقة. إنّ" الهيمنة على الآخر لا تتمّ بالقوة العسكريّة فحسب، ولكنها يمكن أن تتحقّق بالإيديولوجيا. "إنّ السّيطرة لا تتمّ بسبب قوّة المسيطر فحسب، ولكنّها أيضا تتمكّنُ منّا بسبب قدرتها على جعلنا نقبل بها ونسلّم بوجاهتها"[18]. والعرب اليوم يقرّون بتفوق الغرب المادّي، ولكنهم يقرّون أيضا ببربريّة الغرب، وبأنّ مأساتهم هي بسبب الكولونياليّة الغربيّة وعلاقات القوة بين الغرب والشرق، وبأن هذه الهيمنة المسلّطة على رقابهم ليست أبديّة، وأنّ مسألة إسقاطها مسألة وقت.

ننتقل مع حسام إلى مجطّته الأخيرة في السويد، فهو الآخر يعيش رهاب الطقس والطرد ما أن تطأ قدماه أرض السويد. تُقدّمُ لنا الراوية لوحة واصفة لحسام قبل أن يكتوي بنار الغيريّة في أول رحلة له في بلاد الصّقيع.

"كان حسام شابا ميتافيزيقيا إلى حدّ ما، وربما ساذجا، وهو يحيى في عالم نظري من القيم، التي يقرأ عنها، يمكن وصفه أيضا بالطوباوي، الذي لا يرى الحياة كما هي، أكثر ممّا يتصوّر عنها وفق معلوماته عنها؛ تعلق طويلا بحبال الحق والعدالة، وكان مؤمنا أنّه سيعثرُ على الأمان، والاستقرار في السويد، وكان يشبه فعلا طلاّب الجامعة الّذين يطبقون النظريات التي يتعلّمونها؛ إلى ان يكتشفوا بعد صدمات متتالية الفارق بين النّظري والعملي"[19]. نحن في العادة نمتلك المعرفة بالعالم الخارجي من خلال تجارب كتبيّة قبل أن ننغمس في اختبار الواقع القريب منا، والبعيد عنّا، وتكون أولى أحكامنا عنه نظريّة. وما يروّجه الغرب عن نفسه أنّه راقٍ ومتطور وإنساني إلى حدّ بعيد بحكم احترامه لكرامة الإنسان بعيدا عن اعتبارات العرق والثقافة والطّبقة. فالغرب في مخيالنا الرمزي هو مجتمع حقوق الإنسان والتنوير والحريّات الفرديّة والعيش المشترك. هذه الصّورة النمطيّة والهوسيّة عن آخرنا هي التي حرّكت المسحوقين في الشرق المضطهد إلى الهجرة إليه بحثا عن الأمن والأمان. غير أنّ الواقع الفعلي ينكشف مع التجارب المعاشة وخبرة الزمن وليس الكتب والإعلام الرسمي والخطاب التّرويجي. إنّ للامبرياليّة جهازا إعلاميا رهيبا، وهي قادرة على تسويق نفسها اليد الحانية على الضعفاء والمهمّشين.

لنرى صورة الغرب في مخيال حسام. "حين نزلت في بروكسيل أحسستُ بالطمأنينة، إنني الآن في أوروبا، وكأنني تركت خلفي مرحلة سابقة، وطويت صفحة التشرد بين تركيا واليونان"[20]. لقد عبر الجحيم، وأدرك دار السلام والحب وحسن الضيافة. هكذا حدّث نفسه وهو على تخوم أوروبا، بعيدا عن أصوات المدافع وهدير الطائرات المغيرة. ولكنه ما إن دخل السويد حتى صُدم من البرد واستبد به رهاب التشرد، "أحسست بالقلق على الفور ورحت أفكر كيف سأتدبّرُ أمر النوم الليلة، خفت من التشرد في هذا البرد، انشغل ذهني على الفور بفكرة المبيت والهروب من البرد (....) أحسست بالوحشة ونسيت فرحتي بالوصول إلى أوروبا، كان هاجس الخلاص من البرد يسيطر على كلّ حواسي"[21]. لم يترك له البرد القاسي فرصة للاستمتاع بهاجس الأمن في أوروبا، بعيدا عن لعنة الشرق، حيثُ الإخوة الأعداء يتقاتلون نيابة عن الكولونيالية

الغربيّة. يحمل العربيّ صورة مشرقة عن الغرب باعتبارها حضارة الرفاهيّة والجمال والضيافة وحقوق الإنسان والحريّات الفرديّة. وتتعرّض هذه الصّورة الهوسيّة للاهتزاز مع أوّل احتكاكٍ بالغرب. إذْ أنّنا نوجه بقسوة مناخه؛ فكما يهابُ العربي برد أوروبا، يهاب الغربي قيظ الصّحراء وخلائها وصمتها الثقافي.

مع أول احتكاك لحسام بالقائمة على الملجأ يخيبُ أفق انتظاره، وتهتز صورة الغرب في مخيّلته، ويفقد نظرة الإجلال لأوروبا الحضارة. "مديرة الكامب مثلا تينا التي انتظر منها أن تكون متفهّمة لأوضاع اللاجئين ومشاكلهم، متخيلا أنّها ملاك سويدي، خذلته، ليشعر أنها تصلح لأن تكون مديرة سجن؛ فهي غير مبالية باللاجئين، وتنظر إليهم على أنّهم كائنات بحاجة إلى الطّعام والسكن فقط، وعليهم أن يأكلوا ويناموا بصمتٍ"[22]. يتعيّن على حسام أن يُعدّلَ أفق انتظاره وأن يفسد تمثيلات الغرب في مخياله الرمزي. فهي أبعد ما تكون مطابقة للواقع. فالغرب ينظر للعرب باعتبارهم متوحّشين ودمويين، وما دفعهم للهروب من بلدهم يُعزّز هذه الصّورة الرهابية في المتخيّل الذّهني الغربي. غير أنّ الذي لا يعلمه عامّة النّاس في أوروبا وأمريكا، هو أنّ النظام الكولونيالي ممثّلا في الامبرياليّة العالميّة التي تحكم ألفيّتنا هذه، هي من وراء حروب الشرق الأوسط وحروب البلقان. إنّ قوّات أمريكيّة وفرنسيّة وبريطانيّة وروسيّة تدير معارك بلاد الشام، وتُمدّ وكلاءها بالسلاح والغطاء السياسي من أجل إطالة أمد الحرب. فاللاجئون السوريّون هم ضحيّة نظام دولي استعماري، وليسوا ضحيّة نزوعٍ بربري وهمجي متأصّل فيهم، كما يدّعي الغربيون.

وبمرور الوقت في الكامب المخصص للاجئين بدأت صورة السويد باعتبارها واحة للحريّة وحقوق الإنسان، تهتزّ، إذْ أنّ ذلك الكامب هو أشبه ما يكون بالسجن، وأن اللاجئين هم مجرمون يجب إبعادهم عن المدن، وعزلهم عن أصحاب الأرض حتى لا يسمّموا حياتهم. يقع الكامب على مسافة اثني عشر كيلومتر من أقرب مدينة، ويفتقر إلى مصّحة، ولا يوجد مترجم يُمَكِّنُ اللاجئين من التبليغ عن أيّ طارئ. إضافة إلى كل ذلك فإن العاملين في الكامب لا يتخاطبون إلاّ بلغتهم الوطنيّة. لقد بدأ حسام يضيق بهذا الوضع. "المشاكل التي كنت أعيشها في سوريا هي ذاتها؛ الأشخاص والأحداث؛ فقط تغيّر عليّ المكان. كأنني انتقلت من حارّة إلى أخرى؛ ولكنها غريبة"[23]. وإذا أضفنا إلى هذا، أنّ في الملجأ نفس اللّصوص والجهاديين والإرهابيين، الذين كان يراهم في ساحة المعركة، هم معه في الملجأ، فلا شيء يوحي بأنّه غادر الجحيم. هذا هو وجه أوروبا القبيح، أشعلت بينهم الحرب ثمّ جاءت بهم للمحاكمة في أرضها.

كان المكوث في الكامب في انتظار قرار السلطات هو بمثابة الحكم بالإدانة من عدمها بالنسبة للمتهم. واللاجئون المقيمون هنالك هم متهمون في انتظار تبرئتهم أو إدانتهم.

إنّهم لاجئون وأجانب، وهذه صفه تحقيرية بالنسبة للعرب في أوروبا. الأجنبي في السويد أو في أوروبا عموما هو تصنيف دوني. بينما الأجنبي في سوريا هو تصنيفٌ أعلى من تصنيف أصحاب الأرض. العربي دوني حيثما حلّ، ليس بسبب ما يحصل في بلده وحسب،، ولكن أيضا بسبب عرقه وإثنيته.

لم تكن السويد هي تجربة المنفى الوحيدة بالنسبة لحسام. لقد ذاق مرارتها وهو في تركيا، فارّا من الحرب، باحثا عن أرضٍ آمنة. كانت إقامته المؤقتة في تركيا رحلة عذاب، نظرا للكمّ الهائل من العنصريّة التي يتعرّضُ لها الأجانب هنالك. "اشتغلت عند جلال حوالي سنة وستة أشهر، كانت فترة مهينة بالنسبة لي، (....) الأتراك يستغلون العمال السوريين، ما نحصل عليه لا يعادل ربع أجر العامل التركي، يستغلون حاجتنا، ويستخدموننا كالحيوانات، حتى أجرة البيوت كانت مرتفعة جدا، بالنسبة للسوريين"[24]. إنّ الروابط الثقافية والتاريخيّة التي تجمع بين الشعبين التركي والسوري لم تكن كافية للسّوريين للحصول على معاملة عادلة من قبل الأتراك. هؤلاء يستغلّون المأساة السوريّة لاستعباد اللاجئين، وامتصاص جهدهم مقابل إبقائهم بين الموت والحياة. يشعرُ التّركي العامل لدى القطاع الخاص بتركيا أنّه لا يساوي أكثر من حيوان لدى مستخدمه. وبسبب ذلك فكثيرٌ من اللاجئين يفضّلون الهجرة السريّة لأوروبا بما فيها من مخاطر تتهدّد سلامتهم الجسديّة. إنّ مسيرة اللاجئ السّوري هي قصّة عذاب لا تنتهي، ولا تبشّر بالانتهاء إلى حدّ اليوم. فهي تزداد تعقّدا بتدخّل مصالح الدّول العظمى التي حوّلت الوطن كلّه إلى ساحات حرب مدمّرة. إنّ بَسْط الامبرياليّة العالميّة أيديها على سوريا يكشفُ الطّبيعة العنصريّة للغرب الحديث والمعاصر، الذي حوّل شعبا كاملا إلى مشرّد يبحث عن لقمة عيشٍ وعن مغارة يجدُ فيها الأمن. تشعرُ كاتبة هذه الرواية بهذه الحقائق، وبتواطؤ وكلاء الاستعمار في الدّاخل مع أطماع القوى العظمى.

لقد تعاون الكلّ مع الامبرياليّة العالميّة من أجل ترذيل الشعب السوري وتحويله إلى إرهابيين منبوذين حيثما حلّوا. "ذاقت الشّعوب الأوروبية طعم الإرهاب الذي خدم بشار وصُنع في معامله، ولكن تم تعليبه أحيانا بعلب تبدو خارجية من الشكل البراني الحشوة واحدة، حشوة النظام الأمني القاتل، المستعدّ للتعاون مع مجرمي العالم، لوأد الثورة وانتصاره على شعبه"[25]. تكشفُ هذه السّرديّة عن تدخّل الغرب من أجل

إفشال الثورة السوريّة، وتدنيسها وإشباعها بالعملاء الذين صنعتهم المخابرات العالميّة ليكونوا جنودا لنصرة الدّول العظمى وخدمة الكولونياليّة العالمية وفي طليعتها إسرائيل وأمريكا. إنّ النخبة السوريّة تدرك جيّدا هذه الأبعاد المكارثيّة لمأساة الوطن، وتحاول أن تتخطّاها من خلال السرد.

مملكة السرد هي ملجأ النخبة السوريّة التي تعيش التيه في كلّ بقاع الأرض، وتتلقّى الإهانات من كلّ الأطراف، الرّسميّة والشعبيّة. إنّ الآخريّة غير مكتوبة في الدّساتير، ولكنّها تسكن الخطابات والممارسات اليوميّة، في المركز والهامش، وحيثُ تواجد الآخر المختلف والأجنبي. "فالعنف هو الأساس الضّروري للكولونياليّة نفسها"[26] ولكنه لم يعد عنفا مباشرا، بل يتمّ بين وكلاء مثبتين في أعلى مراتب الحكم، وبين بشرٍ من الدّرجة الدّنيا، يتمّ سوقهم إلى الشتات وإفراغ الفضاء منهم، باعتبارهم كائنات زائدة عن الحاجة. وفي سياق ما يحصلُ ببلاد الشام، التي يتمّ تجزيئها الآن، وبشكل نهائي، فإنّه لم يعدْ غريبا عن مخيّلتنا أنّ هناك نيّة لتوسيع دولة إسرائيل من شمالها، وطرد العرب من بلادهم إلى غير رجعة، لينضمّوا إلى قائمة منبوذي العالم.

الخاتمة:

يعرفُ عصرنا هجرات متلاحقة من الشرق باتّجاه المركز، بسبب الأوضاع غير الإنسانيّة التي تعيشها شعوب العالم الثالث في إفريقيا وآسيا. وأسباب هذه الظاهرة التي تدفع بالأمواج البشريّة إلى المنفى هي في غالب الأحيان الحروب الأهليّة، والاستبداد السياسي والفقر المزمن، الذي لا يجد له حلاّ من قبل المسؤولين. ويتحمّل الغرب –ممثلا في أوروبا وأمريكا–المسئوليّة الأخلاقيّة والجنائيّة عن تهجير الشعوب من أوطانها.

إنّ المنفى ظاهرة غير إنسانيّة، تدفع بالمنفي إلى العيش خارج "المكان"، يبحثُ دون جدوى عن تعويض ما فقده في بيت الألفة. ذلك أنّ خسارة البيت الذي يجمع الفرد بأقربائه وأحبائه، لا يمكن تعويضه، حتّى وإن حصلنا على مسكنٍ قارٍ بأيّ شكل من الأشكال. إنّ العلاقة مع هذه البيت البديل مفرغة من بعدها العاطفي، فهي لا تعكس ماضينا وطفولتنا وذكرياتنا، التي هي جزء حميمٌ من شخصيّتنا. إنّ بيت الألفة لا يمكن تعويضه، لأنه جزء أساسي من ذاكرتنا الإنسانيّة، وخسارته تحدثُ جرحا عميقا في

داخلنا.

يتحمّل المستبدّ السياسي جزءا كبيرا من مسؤوليّة تهجير الشعب، وما يحصل فيه من قتل وإذلال وتشتيت، وهي الحالة السّوريّة، كما هو مشارٌ إليه في سرديّة مها حسن صراحة. إنّ النظام المستبدّ هو الذي قسّم الشعب، واستقدم القوّات الأجنبيّة لتقتل معارضيه، كما أشاع العداء بين أفراد الشعب الواحد، ليحوّلوا بلدهم إلى جحيم لا يطاقُ.

من خلال تجربة المنفى في الغرب، يتكشّفُ الوجه القبيح للكثير من الدّول الأوروبيّة التي تفاخر بقيمها الإنسانيّة، ومع ذلك فهي لا تزالُ رهينة الفكر الاستشراقي، الذي ينظر إلى العالم انطلاقا من منطق مانوي.

الهوامش:

[1] –بيل أشكروفت وآخرون، دراسات ما بعد الكولونياليّة، ترجمة أحمد الروبى وآخرون، تقديم كرمة سامي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط الأولى 2010، ص166.

[2] –إدوارد سعيد، تأمّلات حول المنفى، ترجمة ثائر ديب، دار الآداب ببيروت، ط الثانية 2017، ص 118.

[3] –م. ن. ص 126.

[4] – إدوارد سعيد، تأمّلات حول المنفى، ص 123.

[5] –إدوارد سعيد، تأملات في المنفى، ص 127.

[6] –م. ن. ص 132/131.

[7] –م. ن. ص 132.

[8] –إدوارد سعيد، صور المثقف، ترجمة غسان غصن، مراجعة منى أنيس، منتدى وشبكة التانويريين العرب، بيروت، 1993، ص 67.

[9] – محمد الشحات، سرديات المنفى، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان/ الأردن، ط الأولى 2006، ص31.

[10] –ميشال مافيوزي، في الحلّ والترحال، ترجمة عبد الله زارو، إفريقيا الشرق، المغرب، ص 46.

[11] –مها حسن، عمت صباحا أيتها الحرب، منشورات المتوسّط، إيطاليا، ط الأولى 2017، ص 14.

[12] – الرواية، ص 16.

[13] –وغليسي عبد الرحمان، مأزق الهوية وشعرية المنفى في رواية (عمت صباحا أيتها الحرب) مجلة بيروت الثقافة/ رؤى نقدية العدد رقم 6، يونيو 2019، ص 23.

[14] –الرواية، ص 23/22.

[15] –الرواية ص 252.

[16] –الرواية. ص 41.

[17] –الرواية، ص 297.

[18] – سمير خليل، دليل مصطلحات الدراسات الثقافيّة والنقد الثقافي، مراجعة وتعليق سمير الشيخ، دار الكتاب العلميّة، بيروت، لبنان، (لا توجد بيانات أخرى عن الطبعة وسنة النشر)، ص 322/321.

[19]–الرواية، ص 52/51.

[20] الرواية. ص 43.

[21] –الرواية ص 44/43.

[22] –الرواية، ص 52.

[23] –م. ن. ص 54.

[24] –مها حسن، عمت صباحا أيتها الحربُ، ص 278.

[25] –مها حسن، عمت صباحا أيّتها الحرب، ص 277.

[26] –هاردت مايكل وأنطونيو نيغري، الامبراطوريّة، تعريب فاضل جتكر، مكتبة العبيكان، الرياض، ط الأولى 2002، ص 200.

.....